

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأَوَندَ

خاطرة جريدة المساء

خاطرة جريدة المساء

-18-

.....

الأزمات في العالم العربي بخاصة والعالم الإسلامي عامة يأخذ بعضها برقاب بعض. وقد شهدت الفترة القصيرة الماضية حتى اليوم سلسلة منها أدخلت اليأس في نفوس الكثير ممن يمارسون مهنة التفكير.

فالقضية الفلسطينية تراوح في مكانها، بل تتلّغع بالكثير من الضباب وتحيط بها الظلمة من كل أقطارها ولا سيما بعد تعثّر المفاوضات بين الجانبين المصري والإسرائيلي التي هيأت لها اتفاقية كامب دايفيد. وفي الوقت نفسه انفجرت الثورة في إيران وعقبتهها بعد انتهاء النظام الامبراطوري أزمات دولية ثم كانت الغزوة السوفياتية لأفغانستان باسم الحفاظ على شرعية الحكم في البلاد. ومن وراء هذه الأحداث نشبت حرب إعلامية بين المعسكرين العالميين مما أوهم الجيل القائم باقتراب كارثة ساحقة.

وتتابعت نداءات الخائفين وكثرت الشكاوى من الأوضاع السيئة على المستوى القومي حيث تفجرت خلافات سياسية وغير سياسية. والجميع تقريباً يفهم إحساس بفقدان التوازن وضياع المكاسب ويقين بأنّ الاستجابات القومية ليست على مستوى الأحداث وإيمان بأنّ هذه الأحداث ستجرف العالم العربي.

وقد نشأ أصحاب هذا الموقف أنّ الأمة العربية تخوض واحدة من أكبر معاركها التاريخية حيث تصطدم بأخطار خارجية وتواجه تهديدات عسكرية تتمثل في الوجود الإسرائيلي الذي تحالفه قوى دولية كبيرة وأنّ الأمة العربية رغم كل هذه الأزمات لا تزال صامدة، وأنّ الصمود لم يحقق انتصارات إيجابية فهو إعلان عن وجود قائم وعن إرادة حريصة على الحياة رغم فقدان هذه الإرادة للأساليب والمناهج المطلوبة لانطلاقة المسيرة وتحولها من مرحلة الصمود إلى مرحلة التقدم الإيجابي.

هذه الظاهرة لا تدل على إفلاس ولا تنبأ عن اقتراب كارثة ساحقة. إنّها كما علّمنا التاريخ تعبير عن مرحلة تحول في مسيرة الامة العربية. وكما علمنا التاريخ أيضاً لا يتم التحول في مسيرات الأمم دون ضجة ودون خلل يظهر في العلاقات القائمة بين القوى والتيارات المرشحة للتغيير.

إنّ جوهر المشكلة العربية هو في أعماقه عملية تبحث عن الذات وسعي إلى وضع علاقات جديدة وتوازنات مستحدثة وجهد مستمر لاستيعاب أسباب المعرفة ووسائل التقدم ومحاولة ممارسة مسؤوليات التجربة والخطأ. وهذه العملية أشبه ما تكون بالمخاض الذي يرافقه الألم ويتحقق به تمزق داخلي لا يلبث بعد ذلك أن ينتهي بخروج وليد جديد إلى الحياة الدنيا تتجدد به مسيرة الأمة على نحو جديد وبعقلية جديدة وبأمل يمنحه القدرة على البقاء.

هذا هو الوضع الحقيقي للأمة العربية، إنّهُ الوضع الذي يجب أن نتعامل معه لا من موقع الاستسلام واليأس بل من موقع الإيمان بأنّ الطريق إلى النصر محفوظ بالمكاره.

إنّ الأمم الأوروبية التي بلغت في القرن الماضي مرحلة النضوج قد عانت قبلها وواجهت مشكلات سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية. لقد خاضت هذه الأمم حروباً استمرت سنوات كثيرة منها: حرب المئة عام، وحرب الثلاثين عاماً، والصراع الدامي بين المذاهب الدينية والمغامرات المسلحة الدموية في البحار والقارات الخمس، ثم خرجت منها وقد حققت ذاتها أكثر فأكثر.

هكذا شأن الأمم في التاريخ، تحولاتها لا تتم إلا بثمن كبير. والعرب اليوم مدعوون راضين أو كارهين بدفع الثمن وسيتابعون الدفع كما دفعوا من قبل وهم في طريقهم إلى التكامل والنضوج.